المقامة الأسدية لبديع الزمان الهمذاني دراسة في البنية السردية

طالب الدكتوراه : كمال شاكي جامعة الجزائر 2
د.سليمان بوراس جامعة محمد بوضياف المسيلة

الملخص:

تعد المقامة من الفنون النثرية التي ظهرت في القرن الرابع للهجرة، وهي من أرقى أجناس النثر العربي القديم، يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على الجوانب الفنية لهذا النوع الأدبي، وذلك بالتركيز على العناصر الداخلة في بنائه من راو وبطل وحدث وشخصيات، وقد بدأنا بالاستهلال السردي وأشرنا فيه إلى عنوان المقامة وأصل اشتقاقها والجملة التي افتتح بها بديع الزمان الهمذاني مقامته الأسدية، إضافة إلى الحوار، حيث وقفنا على أشكال متعددة من الحوار في المقامة وبيناها، كما تطرقنا أيضا إلى الأمكنة والشخصيات وبينا خصوصية كل منهما في المقامة.

الكلمات المفتاحية: المقامة الأسدية؛ بديع الزمان الهمذاني؛ البنية السردية.

Résumé :

Une des arts de prose qui apparaissant dans le quatrième siècle de la hijra, elle est considérée parmi les plus antiques, Ce discours essaye d'éclaixir ce genre de littérature en ce pasont sur les éléments de l'héroïsme et les personnage de l'œuvre. On a illustré par Badie zaman en titre, en montrant sa merveille et sou dialogue sans ignorer les caractéristique du personnage.

Les mots clés : *Al-Maqama Al-Assadia; Badi' Zaman Hamadani; structure narrative.*

تمهيد:

تُعرّف المقامة على أنها فن من فنون الأدب ابتكره بديع الزمان الهمذاني ومهّد لظهوره. أساسه الحوار الدرامي، كما أنه يحتوي على عناصر درامية مثل: الحبكة، الشخصية، الراوي، البطل، الحدث، وغيرها من العناصر الداخلة في بناء المقامة، من أهم أهدافها تعليم اللغة ومفرداتها للناشئين وذلك ما أراده الهمذاني حين بدأ بتأليفها،

وما يبرز في المقامة من جهة أخرى هو نصها الأدبي الذي يتميز بالمفردات الصعبة والأسلوب العالي في الكتابة.

أولا: الاستهلال السردي:

قبل الحديث عن الاستهلال لا بد من الإشارة إلى العنوان أو التسمية، حيث حظي العنوان بما هو « إشارة وعلامة ذات أبعاد سيميائية دلالية بأهمية كبرى في التراث العربي ولاسيما أنه يشمل أول لقاء بين المرسل والمتلقي، وهو أول ما يواجه المتلقي من النص وهو العتبة لتأسيس وعي القارئ. ولقد أشاد الدارسون بالوظائف المتعددة التي يمارسها العنوان في إطار الدراسات السيميائية وبرز في علم اللغة النصي الذي يبحث في العلاقة بين المضمون والعنوان، ومن هنا يكتسب العنوان وظيفة أو قيمة سيميائية إشارية، بالإضافة إلى كونه يؤدي وظيفة تواصلية وتعيينية ويحمل العنوان باعتباره دالا إيحاءات متنوعة شديدة الثراء مما أدى ببعض الدارسين إلى اعتباره بطاقة تعريف الهوية للنص ومن هنا نجد القدماء يعللون تسمية كتبهم بقولهم: « وسميناه بما رسمناه، ليكون مشاكلا لاسمه... » [1]. فهم يؤكدون وظيفة الدلالة الإشارية للمضمون.

حيث كان لكل مقامة من مقامات بديع الزمان الهمذاني اسم اشتقه لها من مكان المقامة التي جرت أحداثها فيه، أو المكان الذي قصد له، أو جاء منه، أو نسبه إلى زمن حدوث المقامة من جهة سرد الزمان الداخلي أو من جهة موضوعها، أو من جهة شيء مهمٍ ذكر فيها كالأسد في مقامة الأسدية، وفي هذا السياق يقول "عبد الكريم محمد حسين": « ولا ريب أنّ بديع الزمان كان متأثرًا على وجهٍ من الوجوه بالقرآن الكريم، من جهة وضع اسمٍ لكل مقامة، ولا أظنه كان معارض القرآن، ولا أظن صنيعته المتكلفة يمكن أن تكون شبيهة بالفاصلة القرآنية، ولا جمله القصيرة معبأة بما تحمله جمل القرآن الكريم، التي لا تأتي على نحو معين، بل تطول وتقصر بمقتضى الحال التي يقدرها الحق –تبارك اسمه– لكن ما غلب على ظني أنَه رأى أنَّ القرآن كان يسمي بعض سوره باسم الحيوان كالبقرة والفيل وبعض الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت لغرض التنبيه على القضية المحيطة بالحيوان أو الحشرة.» [2]

ومعنى هذا أنَّ "الهمذاني" في تسميته لمقاماته كان متأثرًا بالقرآن الكريم، ولكنه لم يُرد معارضة القرآن بهذه التسميات لأن القرآن الكريم لا يمكن معارضته، لذلك سمى بعض مقاماته بأسماء الحيوانات، وعليه يمكن أن نرجع ذلك الأمر إلى إعجاب الهمذاني بأسلوب القرآن الكريم والتأثر به لا من باب معارضته.

ولذلك كان « تدشين الحكي في السرود العربية يحتاج إلى جملة استهلالية يبدأ بها القص، وتعتبر نقطة انطلاق من عالم الصمت إلى عالم السرد، حيث الإعلان المباشر عن الدخول في عالم الحكاية، والشخوص، والأحداث.»[3]

وقد تحدث البلاغيون عن الابتداء وبراعة الاستهلال والافتتاح أو ما يعرف أيضا بالجملة الاستهلالية، أو بداية الكلام، وفي هذا يقول "القرطاجني": « وتحسين الاستهلالات والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه، والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجًا ونشاطًا لتلقي ما بعدها، إن كان بنسبة من ذلك، وربما غطَّت بحسنها كثير من التخون الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها »[4]

فمن خلال هذا القول يتضح أنّ نظرة " القرطاجني" للاستهلال أوسع من نظرة الآخرين حيث يراه ضربا من المهارة وحذق الصناعة ، وفي ذلك إشارة إلى ما هو جمالي في الاستهلالات ، وأيضا تنويه بالجهد المبذول فيه. كما لم يعدم " القرطاجنّي" الوظيفة التأثيرية ، من خلا إشارته إلى علاقة الاستهلال بالمتلقي ، حيث يزداد هذا الأخير نشاطا وحيوية في تقبل ما يلقى إليه، وإن كان من مزية أخرى فإنها تتمثل في تحقيق انسجام في النص ، وعليه يمكن أن نعتبر الاستهلالات وسيلة من وسائل الاتساق والانسجام في النص.

وإذا تأملنا المقامة الأسدية " للهمذاني" فإننا نجده قد كان بارعًا في استهلاله لمقاماته حيث بدأها بمألوف ما اعتاد العرب الافتتاح به كقوله: " حدثنا عيسى بن هشام " فهذه العبارة افتتح بها خمسين مقامة وواحدة افتتحها بعبارة " قال عيسى بن هشام " وهي المقامة الأذربيجانية فعبارة " حدثنا " وردت بصيغة الماضي لأنَّ الماضي يعتبر بوابة الدخول إلى الفاعل الإخباري، إذ إنَّه من خلال إشارته التقليدية " حدثنا عيسى بن هشام قال" يعلن أنَّ هناك سردًا خياليًا سيقدم الآن وتحديدًا مقامة،

وكأنَّ جملته الافتتاحية تقول: " انتبهوا سأحكي الآن مقامة "، فالقاص في مثل هذه المواطن يلفت الانتباه، ويؤسس لحضور الاستمتاع ووقاره والتركيز على القادم في السرد.

ومن دون شك ، فإن تلك التقنية في افتتاح المقامة تؤسس لعقد صلة أولية بين القاص والسامع أو القارئ ، من خلال إثارة انتباهه ، وتوجيه مداركه لما سيبقى إليه ، ويهيئ النفس لتكون أكثر استعدادا لتقبل ما سيأتي ، ومن ثم يتحقق الاندماج والتفاعل .

ثانيا: الشخصية:

تعد الشخصيات من المكونات الرئيسة في القصة، إذ بغيابها تفقد القصة إحدى خصوصياتها، حيث« لا يستطيع ناقد الرواية في أي حال من الأحوال، فصل الشخصية الفنية عن الحدث، إذ نجدها مرتبطة به والحدث مرتبط بها وكلاهما يستعرض جزءا من الفكرة العامة صاعدا بها نحو الغاية المحدودة من القصة.»[5]

وعلى الرغم من أنّ مصطلح الشخصية غالبا ما يستخدم للدلالة على كائنات تنتمي إلى عالم المواقف والأحداث المروية، فإنّه يستخدم في أحيان كثيرة للإشارة إلى الراوي والمروي له[6] فالأشخاص في القصة أو الرواية مصدرهم الواقع، ولكنهم يختلفون عمن نألفهم أو نراهم عادة .

والمقامة الأسدية تضمنت مجموعة من الشخصيات ، يمكن توضيحها فيما يأتي :

1- الشخصيات الرئيسية:

أ- الراوي:

اعتمد "الهمذاني" راويا في مقامته يدعى "عيسى بن هشام" وهو على الأرجح شخصية يكون قد أملاها عليه خياله، حيث نراه يقوم بفعل السرد ويتابع الأحداث من البداية حتى النهاية، إذ نجده مشاركًا في الأحداث، فيقدم وصفا خارجيا للقصة ويترك للشخصيات فرصة التعبير عن نفسها دون تدخل منه، على الرغم من أنّه على علم بما سيحدث.

ومن أمثلة التصوير الخارجي الوارد في المقامة، نذكر تصويره لجمال الوادي « وتاح لنا واد في سفح جبل ذي ألاء وأثل كالعذارى يسرحن الضفائر وينشرن الغدائر » [7]، فذكر كثرة الأشجار وشبه أغصانها وأوراقها المتهدلة بغدائر الحسناوات، وفي ذلك تأثر ببعض شعراء الجاهلية .

كما يقدم أيضا تصويرا سلوكيا لرفقاء السفر عند النزول على الوادي، فذكر ربط الخيل والنوم وذلك لتعويض ما أصاب القوم من التعب والهزال.

وإذا كان "الهمذاني" قد قدّم تصويرا نفسيا لشخصيات آدمية، فإننا نجده يبرع في تصوير الحيوانات معتمدا على الصوت والحركة والتشخيص خاصة عند شعورها بالخطر وكذا ردة فعلها الغريزية، حيث يقول:« فما راعنا إلا صهيل الخيل، ونظرت إلى فرسي وقد أرهف أدنيه وطمح بعينيه يجذّ قوى الحبل بمشافره، ويخد خد الأرض بحوافره، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال وقطّعت الحبال، وأخذت نحو الجبال »[8]. وقد كانت هذه الشخصية تتميز بالذكاء الحاد والقدرة على سرد الأحداث وترتيبها وتسلسلها.

ب– البطل:

وهو مكون رئيسي في المقامة حيث يعتبر الغاية الأولى من الرحلة، رسم له "عيسى بن هشام" صفات وملامح في بداية المقامة حين قال: « كان يبلغني من مقامات الإسكندري ومقالاته ما يصغي إليه النفور، وينتفض له العصفور، ويروى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة، وأنا أسأل الله بقاءه حتى أرزق لقاءه »[9]، وهذا دليل على أنّه شخصية أدبية تمتلك مقالات ومقامات ويعد الغاية الأولى لعيسى بن هشام من الرحلة.

فالإسكندري ينتهي دوره عند هاته الأوصاف أو ملامح الشخصية التي رسمها له عيسى بن هشام، ثم يختفي ولا يعاود الظهور إلا في نهاية المقامة عندما يصرح به "عيسى بن هشام" قائلاً:« إنّ هذا الرجل هو الإسكندري الذي سمعت به وسألت عنه، فإذا هو هو فدلفت إليه »[10] واكتملت المقامة بحوار دار بينهما والذي أراد منه "عيسى بن هشام" اختبار ذكاء وفطنة الإسكندري.

2. الشخصيات المساعدة " الثانوية ":

أ- الفتى الأول:

تظهر هذه الشخصية في مشهد من مشاهد الحكاية، وهو مشهد لقاء الأسد وهجومه على الجماعة، فقدم له الراوية في هذا المشهد وصفا خارجيا ، يتضح لنا في قوله:« وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى »[11]، ولكن سرعان ما قضى عليه الأسد في اللحظة الأولى عند ظهوره.

حيث وظف بيتا شعريا في بداية وصف الشخصية، من ذلك قوله:

" أخضر الجلدة في بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب

بقلب ساقه قدر وسيف كله أثر، وملكته سورة الأسد فخانته أرض قدمه، حتى سقط إلى يده وفمه »[12]. فقد ذكر الهمذاني أوصاف الفتى من لون البشرة الأسمر الدال على الأصالة العربية . كما استعان بالحركة في التصوير حينما أشار إلى ارتباك الفتى وخوفه الشديد.

أ- الفتى الثاني:

أعلن الراوي في نفس المشهد الذي قتل فيه الفتى الأول، والملاحظ أن الراوية قدم تصويرا للحالة النفسية للفتى، من خلال تصوير المواجهة التي دارت بين هذا الفتى و الأسد حيث يقول:« ودعا الحين أخاه بمثل ما دعاه، فصار إليه، وعقل الرعب يديه، فأخذ أرضه وافترش الليث صدره ولكني رميته بعمامتي، وشغلت فمه، حتى حقنت دمه، وقام الفتى فوجأ بطنه، حتى هلك الفتى من خوفه، والأسد للوجأة في جوفه »[13] إذ إنّ عيسى بن هشام أنقذه من تحت الأسد، ونهض الرجل وطعن الأسد طعنة تقتله إلا أنّ هذا الرجل هلك من شدة رعبه من تلك الطعنة، فدفنته الجماعة قبل أن يمضوا في رحلتهم، ومعنى هذا أنّ بديع الزمان الهمذاني أراد أن يبين لنا أن هناك خطرا أعظم من خطر الحيوان، وهو خطر الإنسان إذا فقد القيم والمبادئ الإنسانية.

ج- الفارس:

يرتبط ظهور هذه الشخصية بمشهد سردي جديد، أو حكاية متضمنة داخل الرحلة، إذ ذكره الراوية ضمن مشهد العودة إلى الصحراء، والهبوط بأرضها، وقد نفذ الزاد الذي مع الجماعة وكادوا أن يَهلكوا ، ومما دل على ذلك قوله: « وعدنا إلى الفلاة،

وهبطنا أرضها وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد، ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاد، ولم نملك الذهاب أو الرجوع وخفنا القاتلين الظمأ والجوع، عنّ لنا فارس فصمدنا صمده، وقصدنا قصده »[14]

فالفارس شخصية ذكية أرادت القضاء على "عيسى بن هشام" من خلال استخدامه للحيلة وذلك باستدراجهم إلى سفح الجبل لكنه لم يفلح في القضاء عليهم.

ثالثا: الحدث في المقامة

يعد الحدث أبرز المكونات الرئيسة للقصة، إذ يعرف الحدث على أنه:« تغير في الحالة يعبر عنه في الخطاب بواسطة ملفوظ فعل في صيغة " يفعل" أو " يحدث". والحدث يمكن أن يكون "فعلا" أو "عملا ".»[15]

والمقامة الأسدية تضمنت ثلاث مشاهد، وقد تمثل « المشهد الأول في انتواء عيسى السفر برفقة جماعته بعد أن حدد وجهته وهي مدينة حمص، فذكر كيف بدأ رحلته مع الجماعة وما صادفهم في الطريق أثناء نزولهم بالوادي، والصراع الذي دار بينهم وبين الأسد الذي هجم عليهم، في حين تمثل المشهد الثاني في لقاء الفتى الهارب وما دار من حوار بينه وبين الجماعة، أما المشهد الثالث فقد تمثل في لقاء الإسكندري بعد وصول عيسى بن هشام وجماعته إلى حمص.»[16]

وقد تخللت هذه المشاهد مجموعة من الأحداث نبينها في ما يلي:

- **الحدث الأول:**

يتمثل في عزم "عيسى بن هشام" على السفر والثناء على رفاقه الذين ذهب بصحبتهم، حيث يقول:« إلى أن اتفقت لي حاجة بحمص. فشحذت إليها الحرص. في صحبة أفراد كنجوم الليل. أحلاس لظهور الخيل.»[17] فغايته إذا هي التوجه نحو مدينة حمص، فوصف جماعته الذين رافقوه في هذه الرحلة بكل صفات الفروسية.

- **الحدث الثاني:**

يبدأ الحدث الثاني بوصف مشاقّ الطريق وما أصاب الجياد من هزال شديد جراء طول المسير وتأثير الهاجرة عليهم، وذلك في قوله:« وأخذنا الطريق ننتهب مسافته. ونستأصل شأفته. ولم نزل نفري أسنمة النجاد. بتلك الجياد. حتى صرن

كالعصي. ورجعن كالقسي.»[18] وهذا ما يدل على الصراع القائم بين الجماعة والطريق الذي أثر فيهم من شدة طوله ومن شدة الحر أيضا.

- **الحدث الثالث:**

وفيه تصوير لجمال الوادي ولسلوك الجماعة أثناء النزول به في قوله:« وتاح لنا واد في سفح جبل ذي ألاء وأثل. كالعذارى يسرحن الضفائر. وينشرن الغدائر. ومالت الهاجرة بنا إليها. ونزلنا نغور ونغور وربطنا الأفراس. بالأمراس. وملنا مع النعاس.»[19] والملاحظ هنا أنه ذكر الأشجار وشبه أغصانها وأوراقها المتهدلة بالضفائر، وذكر ربط الخيل والنوم وذلك تعويضا عما أصابهم من تعب وهزال والغاية من ذلك الاستراحة وإراحة المطايا.

- **الحدث الرابع:**

وفيه وصف للحيوانات أثناء شعورها بالخطر وردة فعلها الغريزية، حيث يقول:« فما راعنا إلا صهيل الخيل. ونظرت إلى فرسي وقد أرهف أذنيه. وطمح بعينه. يجذ قوى الحبل بمشافره ويخد خد الأرض بحوافره. ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال. وقطعت الحبال. وأخذت نحو الجبال.»[20] فالخيل لما أحست بالخطر أصابها الاضطراب فقامت بردة فعل، إذ قامت بإرسال الأبوال وتقطيع الحبال والهروب نحو الجبال.

- **الحدث الخامس:**

وهو تصوير لانتقال حالة الفزع من الخيل إلى الجماعة حين ظهور الأسد لهم ويتضح ذلك من خلال قوله:« وطار كل منا إلى سلاحه. »[21] فلما ظهر الأسد لهم قام كل واحد بالإسراع إلى حمل السلاح لمواجهة الخطر.

- **الحدث السادس:**

يبدأ هذا الحدث بوصف مفصل للأسد عند ظهوره، وفي هذا يقول:« فإذا السبع في فروة الموت. قد طلع من غابة. منتفخا في إهابه، كاشرا عن أنيابه، بطرف قد ملئ صلفا. وأنف قد حشى أنفا وصدر لا يبرحه القلب و لا يسكنه الرعب. »[22] ففي هذا وصف دقيق للأسد حيث وصفه بكل صفات القوة والشراسة.

- **الحدث السابع:**

وتمثل في مواجهة الأسد وما ترتب عنها من نتائج، ففي هاته المواجهة « يصرع الأسد رجلا أرضا من غير أن يقتله ويتجاوزه إلى آخر فينقذه عيسى بن هشام من تحته فينهض الرجل ويطعن الأسد طعنة تقتله إلا أن هذا الرجل يموت من شدة رعبه بعد تلك الطعنة، فيدفنه صحبه قبل المضي في رحلتهم ليبين لنا بديع الزمان ظهور خطر أعظم من خطر الحيوان وهو خطر الإنسان إذا فقد القيم والمبادئ الإنسانية.»[23]

- **الحدث الثامن:**

يتجلى هذا الحدث من خلال عودة "عيسى بن هشام" وجماعته إلى الفلاة، وقد أصابهم الجوع والعطش وفي هذا يقول:« وعدنا إلى الفلاة. وهبطنا أرضها وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد. ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاذ. ولم نملك الذهاب ولا الرجوع. وخفنا القاتلين الظمأ و الجوع. »[24] ومعنى هذا أنه لم يبق لدى الجماعة شيء مما ادخروه للرحلة وكادوا أن يهلكوا.

- **الحدث التاسع:**

ويتمثل في ظهور الفارس ومحاورته الجماعة، وعن ظهوره يقول الهمذاني:« عنّ لنا فارس فصمدنا صمده. وقصدنا قصده.»[25] وقد وصفه الهمذاني بعدة أوصاف وفي هذا يقول:« فإذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل، وقوام ما ترق العين فيه تسهل وعارض قد اخضرّ وشارب قد طرّ، وساعد ملآن. وقضيب ريان ونجار تركي وزي ملكي. »[26]

إذ دار بينه وبين الجماعة حوار حول مكان مجيئه وسبب خروجه إلى تلك الفلاة وعن مقصده وظروف معيشته وأحواله.

- **الحدث العاشر:**

وتمثل هذا الحدث في تغيير مسار الرحلة والتوجه إلى سفح الجبل بعدما دلّهم الفارس على عين توجد بهذا الجبل ، ويتضح هذا في قول "الهمذاني": « فقال: يا سادة إنّ في سفح الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء، فخذوا من هنالك الماء. فلوينا الأعنّة إلى حيث أشار وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركب الجنادب

العيدان.»[27] وفي هذا دليل على أن الجماعة قد اتبعوا الفارس إلى الجبل الذي دلهم عليه.

- **الحدث الحادي عشر:**

وفي هذا الحدث عودة لوصف الفتى أثناء الإقامة، وذلك في قوله:« فما شككنا أنه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان. فعمد إلى السروج فحطّها. وإلى الأفراس فحشّها. وإلى الأمكنة فرشّها. وقد حارت البصائر فيه. ووقفت الأبصار عليه. فقلت يا فتى ما ألطفك في الخدمة وما أحسنك في الجملة. فالويل لمن فارقته. وطوبى لمن رافقته. فكيف شكر الله على النعمة بك.»[28] فهو هنا يداعب هذا الفارس من خلال وصفه بكل صفات الحسن والجمال.

- **الحدث الثاني عشر:**

يبيّن هذا الحدث الصراع الذي دار بين الجماعة والفارس بعد استدراجه لهم ومن أمثلة هذا الصراع قول "الهمذاني":« قلنا: هات، فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوق سهما إلى السماء وأتبعه بآخر فشقه في الهواء. وقال سأريكم نوعا آخر ثم عمد إلى كنانتي فأخذها وعلى فرسي فعلاه. ورمى أحدنا بسهم أثبته في صدره، وآخر طيره من ظهره. فقلت: ويحك ما تصنع. قال: اسكت يا لكع ... والقوس في يده يرشق بها الظهور ويمشق بها البطون والصدور وحين رأينا الجد أخذنا القد. فشد بعضنا بعضا، وبقيت وحدي، لا أجد من يشد يدي. فقال: أخرج بإهابك عن ثيابك. فخرجت ثم نزل عن فرسه. وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر. وينزع ثيابه. وصار إلي وعلي خُفَّان جديدان فقال: اخلعهما لا أمّ لك. فقلت: هذا خُفّ لبسته رطبا فليس يمكنني نزعه. فقال علي خلعه.»[29] فالفارس هنا استدرجهم إلى سفح الجبل، وقد كان من ذلك القضاء على عيسى بن هشام وجماعته الواحد تلو الآخر، فقد كان يظهر لهم خلاف ما يبطن.

ومما يلاحظ أنّ هذا الحدث كان مليئا بالحركة وتوزع الأدوار بين الفارس و"عيسى بن هشام وجماعته . كما تجلت فيه فكرة الحيلة والخداع ، من خلال أساليب المراوغة التي لجأ إليها الفارس من أجل الإطاحة بعيسى بن هشام وجماعته والإيقاع بهم والاستيلاء على أسلحتهم وخيولهم.

- **الحدث الثالث عشر:**

ويتمثل في هلاك الفارس بعد ما دار بينه وبين "عيسى بن هشام" من صراع، ويتضح هذا من خلال قوله:« ثم دنى إلي لينتزع الخُفّ ومددت يدي إلى سكين كان معي في الخف. وهو في شغله فأثبتّه في بطنه. وأبَنتُه من متنه، فما زاد على فم فغره. وألقمه حجره. وقمت إلى أصحابي فحللت أيدهم وتوزعنا سلب القتيلين. وأدركنا الرفيق. وقد جاء بنفسه. وصار لرمسه.»[30] وبعد دفن الفتى، أكمل عيسى بن هشام وجماعته مسيرهم إلى حمص.

- **الحدث الرابع عشر:**

ويتمثل في وصول "عيسى بن هشام" وجماعته إلى حمص، المدينة التي كانت غايتهم من الرحلة ولقاء الإسكندري، حيث قدم وصفا لهذا اللقاء، وذلك في قوله:« رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبنيّة، بجراب وعصيّة، وهو يقول:

رَحِمَ اللهُ مَن حَشَـــا فِي جُرَابِي مَكَارِمَهْ

رَحِمَ اللهُ مَنْ رَنَـــا لِسَعِيـدٍ وَفَاطِمَـــهْ

إِنَّهُ خَـــادِمٌ لَـكُـــمْ وَهِيَّ لَا شَكَّ خَادِمَهْ

قال عيسى بن هشام: فقلت إنّ هذا الرجل هو الإسكندري الذي سمعت به. وسألت عنه. فإذا هو هو فد لفت إليه، وقلت: احتكم حكمك، فقال: درهم، فقلت:

لَـكَ دِرْهَـــمٌ فِي مِثْـلِـهِ مَا دَامَ يُسْعِدُنِي النَّفْـــسُ

فَاحْسُبْ حِسَابَكَ وَالْتَمِسْ كَيْمَا أُنِيلَ المُلْتَمَـــــسْ

وقلت لهم: درهم في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيت إلى العشرين. ثم قلت: كم معك. قال: عشرون رغيفا. فأمرت له بها وقلت: لا نصْر مع الخذلان ولا حيلة مع الحرمان.»[31] وما نلاحظه هنا أن أبا الفتح الإسكندري «أدرك أنه غاية في ذاته، لذا رفض منحة عيسى إنه يحول الخبر اللازم فقط لمجرد وجوده، دون أية محاولة منه لإجهاد ذهنه في حسبة عيسى، حيث أراد عيسى أن يخوض الإسكندري ما يشبه الاختبار العقلي من أجل الحصول على المال، غير أن الإسكندري على عكس ما عرف عنه يهمش المال، ويصرّ على طريقة وجود النقيض لوجود عيسى.»[32]

كما نستنتج مما سبق أن الهمذاني كان بارعا في رسم الشخصيات وتصوير الأماكن ووصف الأحداث، والظروف التي عايشوها، إذ جاءت الأحداث متسلسلة تسلسلا منطقيا فبدأت المقامة بانتواء "عيسى بن هشام" ورفاقه السفر.

وبطبيعة الحال فإن السفر يحتاج إلى رفقاء، وهو ما جعل "عيسى بن هشام" يختار رفقة لهاته الرحلة من خَيَرة الفرسان لأنه على علم بأن الرحلة ستكون شاقة وخطرة، وستؤدي حتما إلى التعب والعطش والمعاناة، ولهذا وظف مجموعة من الصور الفنية منها صورة الوادي ليدل على أن الرفقة بحاجة إلى الراحة للتخلص من التعب الذي أصابهم جرّاء هاته الرحلة فضلا عن ذلك توظيفه للصورة المرعبة للأسد والتي بدورها تبعث روح التشويق لدى القارئ مما يجعله يتلهف لمعرفة النتائج المترتبة عن ظهور الأسد.

ونجد في المقامة أيضا تسلسلا في وصف الأحوال النفسية، إذ بدأت الرحلة بالتفاؤل والتشوق للمسير وبعدها الإحساس بالتعب والإنهاك من طول المسير الذي أدى بالجماعة إلى النزول بالوادي للراحة، وفجأة تحس الحيوانات بالخطر عند ظهور الأسد، ما جعلها تقوم بردة فعل، ثم تنتقل حالة الفزع والخوف من الحيوانات إلى "عيسى بن هشام" ورفقته فأسرعوا إلى حمل السلاح يدا واحدة لمواجهة الخطر، وبعد التخلص من الأسد تَولّد شعور بالطمأنينة في نفس "عيسى بن هشام" وجماعته، ليواصلوا المسير بعدها.

وقد اختار الهمذاني نهاية تخدم الغاية التي سافر من أجلها والتي تمثلت في لقاء الإسكندري.

رابعا: الحوار في المقامة الأسدية:

يُعد الحوار فنا من الفنون النثرية التي عرفها العرب قديما وحديثا، يتناول شتى الموضوعات، ويتشبع بتبادل الآراء والأفكار، ويعتبر وسيلة للكشف عن شخصية المتكلم لأنها تدعوه لطرح ما بداخله مباشرة دون تفكير أو تحضير.

فمن خلال تحليلينا للمقامة الأسدية وقفنا على أشكال متعددة من الحوار نذكر منها ما يأتي:

أ- الحوار بين المجموعة والفرد:

نعثر على هذا النوع من الحوار في مشهد التقاء "عيسى بن هشام" ومن صَحِبَه في السفر بالفارس أثناء عودتهم إلى الفلاة .

ومما ورد في ذلك قوله « فقلنا ما لك لا أبا لك فقال: أنا عبد بعض الملوك هَمَّ من قتلي بِهَمٍّ، فَهِمْتُ على وجهي حيث تراني »[33] إذ قام الحوار هنا على السؤال والجواب وتجلّت أداة الاستفهام في "ما" التي استعملت في الاستفهام عما حدث لذلك الفارس. كما تضمن ذلك الحوار تركيبا يظهر التعجب من الحالة التي كان عليها الفارس وإذا كان التركيب "لا أبا لك" يخرج من مخرج التعجب لما يلاحظ من حسن أو قبح على الشخص ، فإنه يمكننا أن ندرك سبب ذلك التعجب والذي اقترن بالحسن من خلال المقاطع الوصفية التي قدمها "عيسى بن هشام" لذلك الفارس قبل أن تبدأ عملية الحوار. ومما كشف عن ذلك الحسن قوله: «وجه يبرق برق العارض المتهلل وقوام متى ترق العين فيه تسهل، وعارض قد اخضرّ وشارب قد طرّ، وساعد ملآن، وقضيب ريان، ونِجار تركي، وزيّ ملكي »[34]

وإذا كان من أغراض السؤال هو انتظار الجواب فإن ذلك الفارس قد قدّم إجابة عن سؤال "عيسى بن هشام" وأصحابه حيث قال "أنا عبد بعض الملوك ، همّ من قتلي بهم فهمت على وجهي إلى حيث تراني".

فمن خلال إجابة الفارس يتضح لنا أن الهَمَّ القائم بنفسه صورة من القتل لا نفس القتل بمعنى أنه ادعى فكرة قتله ولذلك فر وذهب لا يَدْرِي أين يتجه. ليتخلل ذلك الحوار تعليق "عيسى بن هشام" على تلك الإجابة التي ذهب من خلالها إلى تصديق ادّعاء ذلك الفارس واتضح ذلك في قول عيسى بن هشام« وشهدت شواهد حاله على صدق مقاله. » [35]

وإذا كان الحوار السابق قد كشف عن بعض مواصفات الشخصية فإنه في مواطن أخرى، يساهم في تنامي الحدث وتطويره وتوجيه الحركة من مشهد إلى آخر، ويتضح ذلك أثناء عرض الفارس على "عيسى بن هشام" وأصحابه التوجه إلى سفح

الجبل، إذ قال الفارس : « ألا تقيلون في هذا الظل الرحب، على هذا الماء العذب فقلنا: أنت وذاك » [36]

ومما دل على ذلك العرض هو افتتاح الحوار بأداة تفيد ذلك الغرض وهي " ألا ". ومما يلاحظ أيضا في تراكيب الحوار المنقول على لسان الفارس كشف خصوصية الأمكنة من خلال الوصف، إضافة إلى ميزة أخرى وهي طول الحوار الأول وقصر الثاني الذي تمثل في تركيب موجز "أنت وذاك " الذي كشف عن قبول العرض.

ولعل طول الحوار الأول كان مقصودا خادما المعنى وهو تقديم أوصاف تبرز خصوصية المكان المضاد للفلاة العوراء ولذلك عزز المكان الجديد " سفح الجبل " بصفات تناقض صفات المكان الأول، من خلال الإشارة إلى وجود الظل والماء العذب .

وإذا كان هذا النوع من الحوار قائما عل السؤال والجواب أحيانا وعلى تقديم الإجابة من طرف "عيسى بن هشام" وجماعته في شكل صريح، أحيانا أخرى ، فإننا نجد توظيفا آخر لهذا الحوار حيث لا تكون الإجابة مباشرة بعد فعل القول وإنما تفهم من عملية السرد التي تتعلق بالبطل من ذلك قوله: « يا سادة إن في سفح الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء فخذوا من هنالك الماء »[37]

لتتم الإجابة عن ذلك العرض الذي بيّنه في فعل الأمر " فخذوا " في تركيب كاشف عن القبول ودون ذكر إجابة صريحة وذلك ما عبّر عنه "عيسى بن هشام" في قوله: « فلوينا الأعنّة إلى حيث أشار »[38]

ب- الحوار بين اثنين:

وقد تجلى هذا الشكل من الحوار بين "عيسى بن هشام" والفارس وكذلك بينه وبين الإسكندري. ومن مقاطع الحوار التي كانت على لسان "عيسى بن هشام" دون الجماعة وبين الفارس قوله:" أنا اليوم عبدك ومالي مالك فقلت بشرى لك وبك. أدّاك

سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب" وقوله أيضا: " فقلت يا فتى ما ألطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة فقال: « ما سترونه مني أكثر ، أتعجبكم خفتي في الخدمة وحسني في الجملة فكيف لو رأيتموني في الرفقة، أريكم من حذقي طرفا لتزدادوا بي شغفا. »[39]

ففي الحوار الأول نجد أن الفارس يبدي خضوعه وقبوله لأن يكون تحت إمرة وطاعة "عيسى بن هشام"، كما أنّ ماله أيضا تبع لمال "عيسى بن هشام" ويمكن لهذا الأخير أن يتصرف فيه وأن يقدّم عونا للفارس إن احتاج إلى ذلك. ليكشف الحوار على لسان "عيسى بن هشام" عن موقف هذا الأخير الذي رحّب بالفكرة وطمأن الفارس من خلال بيان كرم ورغد عيش "عيسى بن هشام"، وتجلى ذلك من خلال قوله: « بشرى لك وبك. أداك سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب »[40]

وفي نفس الطرفين المتحاورين – "عيسى بن هشام" والفارس– نجد تطورا في وصف ملامح شخصية الفتى سواء من حيث ما أفصح عنه "عيسى بن هشام" أو من خلال ما قدّمه الفارس من عروض وخدمات جديدة وإخباره عن معرفته أشياء كثيرة، خاصة في حالة الرفقة وهو ما كشف عنه المقطع الثاني من الحوار السابق.

وقد كان في هذا الحوار تحوّل في شخصية الفارس الذي بدا في الأول عبدا يستنجد "بعيسى بن هشام" وأصحابه، ليظهر في ذلك الحوار شخصية ذات بأس في الدفاع عن رفاقه وبراعته في رمي السهام واستعمال آلة الحرب، ليعرض على "عيسى بن هشام" وجماعته إظهار خبرته مما أبداه من حذقه، وفي ذلك بداية لمحاولة القضاء عليهم من خلال استعمال أسلحتهم التي اتخذها حيلة لإظهار براعته.

وإذا انتقلنا إلى الحوار الذي كان بين "عيسى بن هشام" والإسكندري نجد أن ذلك الحوار قد أفصح وكشف عن تلك الشخصيات التي تحدّث عنها "عيسى بن هشام" في مطلع المقامة والتي كانت سبب سفره، ومما ورد في ذلك الحوار « قال عيسى بن

هشام فقلت إن هذا الرجل هو الإسكندري الذي سمعت به وسألت عنه فإذا هو هو فدلفت إليه » [41]

ليكشف هذا المقطع عن إسراع "عيسى بن هشام" في الاتصال بالإسكندري، ليبين بعدها "عيسى بن هشام" ما جرى بينه وبين الإسكندري من حوار، حيث يقول عيسى بن هشام : « وقلت: احتكم حكمك، فقال: درهم، فقلت:

لَكَ دِرْهَمٌ فِـي مِثْلِـــــــهِ مَا دَامَ يُسْعِدُنِي النَّفْسُ

فَاحْسُبْ حِسَابَكَ وَالْتَمِسْ كَيْمَا أُنِيلَ المُلْتَمَـــــسْ

وقلت له: درهم في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيت إلى العشرين ثم قلت: كم معك، قال: عشرون رغيفا فأمرت له بها، وقلت: لا نصر مع الخذلان، ولا حيلة مع الحرمان».[42]

فقد افتتح عيسى بن هشام حواره بفعل أمر " احتكم " ليفيد السماح للإسكندري بالحكم في مال "عيسى بن هشام"، ليتم بيان الرد الذي كان مقتصرا على طلب درهم واحد على الرغم مما كان للإسكندري من سعة في الإباحة.

ومما نلاحظه هنا أن هذا الحوار قد تخلله توظيف أبيات من الشعر، وهذا خاصية عرفت بها المقامة. ومما يثير الغرابة رد "عيسى بن هشام" حينما طلب الإسكندري درهما واحدا، وهو أنه قال له: " لك درهم في مثله " وهنا يمكن أن يفهم القارئ أنه لم يجُد عليه على الرغم من أنه حكّمه في ماله وبيّن له تنفيذ ما يحكّم به، وقد تكون الغرابة إذا «نظرنا إلى أقسام الدرهم من الحَبَّات والدوانق وضربنا درهما في مثله لأتى الضرب بزيادة، فإنا لو فرضنا الدرهم ستين قمحة مثلا، وضربناها في مثلها لكان الخارج ثلاثة آلاف وستمائة قمحة وهو من الدراهم ستون درهما فيكون الحاصل من ضرب درهم في مثله هذا المبلغ »[43]

وإذا اعتبرنا القيمة السابقة نفسها للدرهم وهي ستون وقمنا بضرب هذا العدد في اثنين والاثنان في ثلاثة، والحاصل في أربعة وهكذا إلى العشرين فإن الناتج هو مبلغ كبير جدا من دون شك يعجز "عيسى بن هشام" عن تسديده. أما إذا حسبنا على أن الواحد مضروب في الاثنين وهو مضروب في الثلاثة إلى العشرين، فيكون الحاصل

هو مائتا درهم وعشرة دراهم وهذا مبلغ يمكن لعيسى بن هشام أن يعطيها للإسكندري.(44)

ومما يزيد الأمر غرابة هو تصريح الإسكندري بعشرين رغيفا، وعلى كلا الحسابين لا يكون الناتج عشرين رغيفا. ولعلّ في لجوء "أبي الفتح الإسكندري" إلى القول بذلك العدد هو خذلانه وحرمانه ونحوسة بخته، ولا حيلة فيما حتّم من ذلك، وبهذا عرف "عيسى بن هشام" أن "أبا الفتح" إنّما قصد به مع حسن حالته نكد الطالع وسوء البخت، وإلا فكيف يعجز مثله عن حساب ما ألقاه عليه من العدد لولا تسجيل الخذلان عليه.(45)

ومن دون شك فإن ذلك الحوار الذي كان بين "عيسى بن هشام" والبطل "أبي الفتح الإسكندري" قد كشف عن بعض الممارسات التي كانت سائدة في العصر العباسي من اللجوء إلى الحيلة والتحايل للحصول على المال، كما أن هذا السلوك لم يكن خافيا على أفراد ذلك المجتمع مما جعل صعوبة في جمع المال بتلك الطريقة وهو ما كشف عنه البطل "أبو الفتح الإسكندري" حينما أشار إلى فكرة الخذلان ونحوسة البخت.

من خلال هذا البحث، والذي كان دراسة في البنية السردية، أمكننا التوصّل إلى مجموعة من النتائج، نجملها فيما يأتي :

- شكّل الراوي عنصرا أساسيا في البنية السردية للمقامة باعتباره المسؤول الأول عن تنظيم مسار السرد، فمثّل الشخصية نفسها التي تدير عملية الحكي بضمير المتكلم، مما جعله راو عليم بالتجربة التي يرويها فلم يتوقف الأمر بالتزام الراوي الوظيفة السردية بل استطاع أن يمارس وظائف متعددة كالتنسيق والإخبار.
- تتجسد خصوصية الشخصية في المقامة فيما يلي:

يقسمها البحث إلى شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية؛ أما الرئيسية منها ما ينسب إليه دور البطولة والذي قام به الراوي نفسه، أما بالنسبة للشخصيات الثانوية والتي كانت مهيمنة على نص المقامة بمختلف أصنافها وانتماءاتها ركز فيها الهمذاني على الجانب الشكلي والاجتماعي لها كاستجابة عفوية للحالة النفسية لدى الكاتب.

- في حين أن الأماكن التي ذكرت في المقامة تم توظيفها حسب ما يخدم فكرة المقامة من خلال بعض الثنائيات القائمة على التعب والراحة أو الخوف والشجاعة ، فكانت الأمكنة بخصوصياتها مترجمة تلك الثنائيات ، من خلال ما اتضح من تصوير الفلاة والوادي أو الفرار من الأسد ومقاومته.

الهوامش:

1. عيسى عودة برهومه:(سيمياء العنوان في الدرس اللغوي)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع 25/97، ص164.
2. عبد الكريم محمد حسين:(المقامة القردية الفكر والبناء)، ط 2، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1963م، ص 45.
3. يوسف إسماعيل: المقامات مقاربة في التحولات والتبني والتجاوز، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2007م، ص139.
4. أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، ص309.
5. خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها، د ط، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، د ت، ص167.
6. جيرالد برنس: قاموس السرديات، تر: السيد إمام، ط1، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2003م، ص30.
7. بديع الزمان الهمذاني، مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح الشيخ محمد عبد، ط2، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012 م، ص34.
8. المصدر نفسه ، ص35.
9. المصدر نفسه، ص33.
10. المصدر نفسه، ص42.
11. المصدر نفسه، ص36.
12. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
13. المصدر نفسه ، ص36، 37.
14. المصدر نفسه ، ص37.
15. جيرالد برنس: قاموس السرديات، ص63.

16. يراجع: أيمن بكر: السرد في مقامات الهمذاني، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989م، من الصفحة175 إلى الصفحة181.
17. بديع الزمان الهمذاني، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص34.
18. المصدر نفسه، ص34.
19. المصدر نفسه ، ص34.
20. المصدر نفسه ، ص35.
21. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
22. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
23. محمود المقداد: (مستويات التناص بين" المقامة الأسدية لبديع الزمان الهمذاني" و" صفة الأسد" لأبي زبيد الطائي)، مجلة جامعة دمشق، م 29، ع "1، 2 "، 2013م، ص71.
24. بديع الزمان الهمذاني، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص37.
25. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
26. المصدر نفسه ، ص38.
27. المصدر نفسه ، ص38، 39.
28. المصدر نفسه، ص39.
29. المصدر نفسه، ص40، 41.
30. المصدر نفسه، ص41.
31. المصدر نفسه، ص42، 43.
32. أيمن بكر: السرد في مقامات الهمذاني، ص181.
33. بديع الزمان الهمذاني، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص38.
34. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
35. المصدر نفسه، ص38.
36. المصدر نفسه، ص39.
37. المصدر نفسه، ص38، 39.
38. المصدر نفسه، ص41.
39. المصدر نفسه، ص40.
40. المصدر نفسه، ص38.

41. المصدر نفسه، ص42.
42. المصدر نفسه، ص42، 43.
43. المصدر نفسه، ص42 من الهامش.
44. المصدر نفسه، ص43 من الهامش.
45. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.